من أدب الجاحظ

للاستاذ توفيق الحكيم

استاذنا الكبير الدكتور طه

انى أشكر أهل الكهف الذين قادونى اليك . واذا كان هذا هو الغرض من بعثهم فى كتابى فقد حق البعث نجح . الحقيقة ان رعاية الدكتور طه أثمن ما منحني القديسون الثلاثة من كنوز . وان صداقته التى أطمح اليها يوم أكون خليقاً بها هى مفتاح عملى الادبى فى المستقبل . إنه ليشق علي أن يمضى الاسبوع ولا ألقى الدكتور . فلقد وجدت في حديثه الجميل زادا روحيا لا غنى لى عنه .

تشرفت بلقاء الاستاذ الجليل لطفى بك ودار بيننا حديث طويل أرويه ان شاء الله عند اللقاء .

وبعد فقد كنت أقرأ الجاحظ منذ عامين فألفيت عنده كلاما كالحوار التمثيلى لم أر مثله فى الاغانى . وقد بدالى ان أنقل هذا الحوار على شكل « منظر صغير » دون تغيير فى الالفاظ والمعاني . انما سمحت لنفسى ببعض الحذف وبعض الملاءمة بين وضع الحوار الاصلى والوضع المسرحى بغير أن أمس جوهر الموضوع . حتى يبقى الفضل للجاحظ وللادب العربي ، والحق انه حوار يذكر بالفريد دى موسيه فى « لوميدياته وأمثاله » ان عناصر كل نوع من أنواع الادب والفكر موجودة عند العرب . لكنها مجرد عناصر . فلماذا لا نستخرج هذه العناصر ونفصلها ونبوبها ؟ لماذا لا نضع مثلا كل حوار من هذا الطراز فى الشكل التمثيلى على قدر المستطاع . ونجمعه على أنه نماذج تمثيلية من الأدب العربى . او على انه Rajeunissement للادب القديم بالباسه حلة جديدة دون تغيير للب ؟ اذا صح هذا فان مجال العمل فى الادب العربي القديم متسع . ولن تفرغ منه اجيال قادمة برمتها . والدكتور أول من بحث وحفر ونقب فى آثار الادب العربى . وأول من أدخل روح البحث والتنقيب فى الجامعة . والجامعات هى ميدان لمثل هذا العمل .

اذا كان الدكتور لا يوافقنى على أن عناصر القصص التمثيلى موجودة عند العرب . فما تراه يقول فى هذا « المنظر » وهو من تأليف الجاحظ :

الفراق

المنظر : باب دار كبير . جارية كانها قضيب يتثنى . وهي والهة حيري واقفة فى الدهليز . وجائية تخطر فى مشيتها . يدنو منها شيخ ويسلم عليها فترد السلام بلسان منكسر وقلب حزين .

* * *

الشيخ : — ياسيدتى ! اني شيخ غريب أصابنى عطش فأمري لى بشربة من ماء تؤجرى .

الجارية : إليك عنى ياشيخ ، فاني مشغولة عن سقى الماء وادخار الاجر !

الشيخ : ياسيدتى لأية علة ؟

الجارية : (بعد تردد) لأنى عاشقة من لا ينصفنى ، وأريد من لا يريدني !

الشيخ : (يتأملها) ياسيدتي ، هل علي بسيط الارض من تريدينه ولا يريدك

الجارية : انه لعمري على ذلك الفضل الذى ركب الله فيه من الجمال والدلال .

الشيخ : ياسيدتي ، فما وقوفك فى الدهليز ؟

الجارية : هو طريقه ، وهذا ان اجتيازه .

الشيخ : ياسيدتي . هل اجتمعتما فى خلوة فى ووقت من الاوقات

فلن يرقى الى درجة الشعر الصحيح ولن يجد من النفوس الا احتقارا ، ثم لا يلبث ان يقبر فى مهده

وانه لخير مما تريدون ان يسمع الانسان كلاما منثورا منسجما لا تكلف فيه ، ولا تتعب أذنه في التوفيق بين انغام مختلفة متنافرة ، لاحظ لها من الشعر ، ولا روح لها من ألفة موسيقية ، وان يوما يستحيل فيه الشعر الى ما ذهبتم اليه لهو يوم القضاء على الشعر العربى وجناية هذا على الأجيال المستقبلة أخطر مما تصورون .

ليس يجدي ماتدعون اليه أن يتجلى على الناس في حلة الشعر وأن يحمل بين يديه قيثارته ، فلن تلبث الحلة الخادعة ، أن تبدو مهلهلة شتى الصور والألوان فتقذي بها الأعين ، ولن تلبث القيثارة أن تظهر أوتارها المتنافرة فتحجبها الآذان . ولا يلبث ذلك المسمى شعراً ان يبدو فى حلته عظاماً نخرة ، لاتقوى على الهواء فتعود رفاتاً سحيقاً ، فاعملوا للتجديد ان كنتم صادقين على دعائم ثابتة من القديم ، وإذا يمضى أدبكم العربى المجيد فى طريقه قدُما ، ويتسع لما شئتم من جديد نافع ؟

أم حب مستحدث ؟

الجارية: (تتنفس الصعداء وتسيل دموعها على خديها كطل على ورد وتنشىء تقول :)

وكنا كغصنى بانة وسط روضة نشم جنا اللذات فى عيشة رغد
فافردهذا الغصن من ذك قاطع فيامن رأى فردايحن الى فرد؟

الشيخ : ياهذه ما بلغ من عشقك هذا الفتى ؟

الجارية : أرى الشمس على حائطه أحسن منها على حائط غيره ، وربما أراه بغتة فأبهت وتهرب الروح من جسدى ، وأبقى الاسبوع والاسبوعين بغير عقل

الشيخ : عزيز على ؛ وانت على ما بك من الضنى وشغل القلب بالهوى وانحلال الجسم وضعف القوى ، ما أرى بك من صفاء اللون ورقة البشرة . فكيف لو لم يكن بك من الهوى شيء ؟ أراك كنت مفتنة فى أرض البصرة !

الجارية : كنت والله ياشيخ قبل محبتى لهذا الغلام تحفة الدلال والجمال والكمال . ولقد فتنت جميع ملوك البصرة وفتنى هذا الغلام .

الشيخ : ياهذه ما الذى فرق بينكما ؟

الجارية : نوائب الدهر وأوابد الحدثان . ولحديثي وحديثه شأن من الشان . وأنبئك أمرى : انى كنت اقتصدت فى بعض أيام البروز ، فامرت فزين لى وله مجلس بأنواع الفرش وأوانى الذهب ، ونضدنا الرياحين والشمائم والمشور وأنواع البهار . وكنت دعوت لحبيبي عدة من متظرفات البصرة فيهن من الجواري جارية شهران وكان شراؤها عليه من مدينة عمان ثمانمائة ألف درهم ، وكانت الجارية قد ولعت بى ، وكانت أول من أجابت الدعوة وجاءتنى منهن. فلما حصلت عندى رمت بنفسها علي تقطعنى عضاوقوصا ... فبينا نحن كذلك اذ دخل علي حبيبي . فلما نظر الينا اشمأز لذلك ، وصدف عني وعنها صدوف المهرة العربية اذا سمعت صلاصل اللجم ، وعض على أنامله وولى خارجا . فأنا ياشيخ منذ ثلاث سنين أسل سخيمته ، واستعطفه فلا ينظر الى بعين ، ولا يكتب إلى بحرف ، ولا يكلم لى رسولا .

الشيخ : ياهذه ، أفن العرب هو أم من العجم ؟

الجارية: هو من جلة ملوك البصرة.

الشيخ : من أولاد نبابها أو من أولاد تجارها ؟

الجارية : من عظيم ملوكها .

الشيخ : أشيخ هو أم شاب ؟

الجارية : (تنظر اليه شزراً) : انك لأحمق . أقول هو مثل القمر ليلة البدر أمرد أجرد ، وطرة رقعاء كحنك الغراب تعلوه شقرة فى بياض . عطر اللباس ضارب بالسيف ، طاعن بالرمح ، لاعب بالنرد والشطرنج ، ضارب بالعود والطنبور ، يغنى وينقر على أعدل وزن لا يعيبه شيء الا انحرافه عنى لانقصاً لى منه بل حقدا لما رآنى عليه .

الشيخ : ياهذه وكيف صبرك عنه ؟

الجارية : (حالى معه كحال القائل) :

أما النهار فمستهام واله وجفون عيني ساجفات تدمع
والليل قدأرعى النجوم تفكرا حتى الصباح ومقلتي لاتهجع
كيف اصطبارى عن غزال شادن فى لحظ عينيه سهام تصرع

الشيخ : ياسيدتي ، ما اسمه وأين يكون ؟

الجارية : تصنع به ماذا ؟

الشيخ : أجهد فى لقائه وأعرف الفضل بينكما فى الحال .

الجارية : على شريطة

الشيخ : وماهي ؟

الجارية : تلقانا اذا لقيته وتحمل لااليه رقعة .

الشيخ : لاأكره ذلك

الجارية : هو ضمرة بن المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة . يكنى بابي شجاع ، وقصره في المربد الاعلى . وهو أشهر من ان يخفى . (تصيح فى الدار :) ياجواري دواة وقرطاسا ..

الشيخ : ياسيدتى وجب حقك علىّ . ولزمتك حرمتى لطول وقوفي عليكِ ، وكنت قد سالت شربة ماء ...

الجارية : استغفر الله ! ما فهمنا عنك . (تصيح فى الدار) : أخرج الينا شرابا من ماء وغير ماء

(تقبل وصيفتان تحملان الدواة والقرطاس فتشمر الجارية عن ساعدين كأنهما طومارا فضة ثم تحمل القلم وتكتب الرقعة . ثم تقبل ثلاثون وصيفة بايديهن الكؤوس والجامات والاقداح مملوءة ماء وثلجا وفقاعا وشرابا فيشرب الشيخ ..)